المدافن الملكية ببلاد المغرب القديم

د. محمد بن عبد المؤمن•

تعبّر المدافن عن الجهود والانشغالات الخاصة بالعالم الآخر، ودراسة نماذج منها ببلاد المغرب القديم يعتبر وسيلة للكشف عن مختلف تصرفات سكانه مع الموت، والاهتمام بالعالم الآخر، والاهتمام بمدافن ملوكهم، وبالرغم من شح المعلومات، إلاّ أنني حاولت استخلاص ما يمكن من مادة علمية تخص هذا المعتقد، والعمارة الجنائزية التي استعملها ملوك بلاد المغرب القديم اثناء فترات حكمهم، نخص بالذكر الفترة الموريطانية- النوميدية[١]. ونجد مجموعة من المدافن التي أمكن تقسيمها إلى أضرحة بازينية، وأخرى برجية.

I- الأضرحة البازينية:

يتضح من خلال التقارير التنقيبية، وبقايا المعالم الجنائزية النوميدية الموريطانية التي لا تزال بقاياها موجودة حتى الوقت الحاضر ببلاد المغرب العربي خاصة الجزائر وتونس، أنه كان هنالك اهتمام بدفن الموتى أثناء تلك الفترة، وتهيأة لهم أضرحة التي تبدو ضخمة، ومرتفعة، وذات جمال هندسي مميّز، جعلنا نطرح مجموعة من الأسئلة منها: لمن كانت موجهة؟ ولماذا هذا النوع، أو ذاك؟ وما الغرض منها؟
وبالتالي لا يمكن الاستغناء عن هذه المعالم الجنائزية للكشف عن معتقدات ما بعد الموت أثناء هذه الفترة (النوميدية – الموريطانية) من تاريخ بلاد المغرب القديم.
ومن جملة المعالم الجنائزية البارزة نجد:

1 – ضريح المدغاسن

يقع ضريح (المدغاسن)[٢] النوميدي بالقرب من مدينة (باتنة) بالشرق الجزائري، ويذكر الباحث الفرنسي(كامبس) بأن هذا المعلم الجنائزي هو بازينا بربرية، ويرجح أنه يرجع للملك (بوخوس الأول) أو على الأكثر لابنه (بوخوس الثاني)[٣] ، وتشير التنقيبات أنه قد احتوى على أبواب وهمية (Fausses Portes) بالجهة الشمالية الشرقية، والجنوبية الشرقية، هي مستوحاة من البناية الجنائزية البونية ذات التأثير المصري، ويوضح نفس الباحث أنّ هذه الأخيرة لم تكن للتزيين، بل كانت لها تفسيرات، فكانت تمثّل رموزا لأبواب الضريح من جهة، وللعالم الآخر من جهة

•أستاذ التاريخ القديم كلية العلوم الإنسانية- جامعة وهران ١ ، الجزائر.

١) ينظر الخريطة

٢)ينظر الصورة ١

3) Filippo coareli, Yvon thébert, Architecture funéraire et pouvoir : réflexions sur l'hellénisme numide, mélanges de l'école française de Rome antiquités(=M. E.F.R.), année 1988, volume100,n° 100-2,p 766

أخرى[٤]، زيادة لوجود أروقة خاصة بالطقوس، عليها آثار المغرة الحمراء، كانت موجهة نحو الشرق،[٥] مطلع الشمس التي اعتبرها الليبيون القدماء من بين آلهتهم المفضّلة،[٦] كما احتوت درجات السلم المؤدية للغرفة الجنائزية على بقايا المغرة الحمراء[٧]، ويضيف الباحث الفرنسي (غزال) أن المقاعد الحجرية لهذه الغرفة الجنائزية تكون قد طليت هي الأخرى بهذا الملون الجنائزي[٨]الذي يرمز للدم، والحياة. ويذكر أن هذا المعلم الجنائزي كان لعائلة حاكمة.

٢– الضريح الملكي الموريطاني

ويدعى أيضا بقبر الرّومية، يقع بين مدينة الجزائر وشرشال، و١٥ كلم عن مدينة تيبازة، يمتاز بنفس الخصائص الهندسية لضريح المدغاسن، ويختلف الباحثين حول صاحب هذا الضريح، ومن بين الأطروحات المتداولة أنه خاص بالملك (يوبا الثاني- 23ق.م- ٢٣)، وزوجته(كليوباترا سيليني- Cléopatre Séléné)[٩]، كما تضاربت الآراء حول تاريخ إنجازه.

ضمّت هندسته مجموعة من المؤشرات يعتقد أنها لم تختلف عن باقي الأضرحة النوميدية الموريطانية التي تعلّقت بالاعتقاد في العالم الآخر، حيث احتوى هذا المعلم الجنائزي على أربعة أبواب وهمية من جهاته الأربعة، متجهة نحو الشرق، مطلع الشمس[١٠]، ويمكن الأخذ بفكرة الباحث الفرنسي (كامبس) فيما يخص الأبواب الوهمية لضريح (المدغاسن)، على أنها لم تكن للزخرفة، بل استعملت لغرض شعائري يخص العالم الآخر، كما ظهرت صورة أسد ولبؤة على الحجر بأعلى باب دهليز داخل هذا الضريح، لذلك سمي ببهو الأسود*، وبالرغم من تأويلات هذه الصّورة، إلا أن القدماء كانوا يعهدون إلى مثل الحيوانات مهمة حراسة الأضرحة، وحماية موتاهم، إذ وجدت صورة الأسد منقوشة بضريح (دقة)، و(بلاد قيطون)،

---

4) G. Camps, Nouvelles observations sur l'architecture et l'Age du Medracen, mausolée royal numide , C.R.A.I , 1973 , numéro 3 , pp 488, 491 -492, 506, 509-511 .

5) G . Camps, Monuments et rites…, p 551

6) Hérodote , Histoire, IV , 188; Alia Krandel-Benyounés, La Présence punique en pays numide , Institut du patrimoine , Tunis 2002, p 134

7) Alia Krandel-Benyounés, op.cit , pp 99-100

8) S. Gsell, M.A.A , t 1, Paris, Fontemoing, 1901 ,p67

9) Dodin-Payre,Monique, Les fouilles du tombeau de la chrétienne au XIXe siècle, C.R.A.I ,2003,volume 147, n° 03, pp1141,1154

10) Mounir Bouchenaki(١٩٨٣), Le Mausolée royal de Maurétanie, revue belge de philologie et d'histoire, 1983, volume 61 ,n°61-1,p 257.

و(قصر الصباحين)[١١] ، هذه العقيدة التي كانت منتشرة في الشرق الأدنى القديم[١٢]، مثلما يشير إليه تابوت (أهرم-Ahram) ملك مدينة (جبيل- Byblos) الذي تحرسه أربعة أسود [١٣].

كما ضمّ هذا الضريح رواقا مقببا غير تام الاستدارة ، ينطلق من الباب الشرقي، ويمر بالأبواب الوهمية الشمالية، والغربية، والجنوبية، وجدت على جدرانه، واحد وخمسون كوّة منحوتة على الصّخر، كانت توضع بداخلها المصابيح، وتبعد الواحدة عن الأخرى ثلاثة أمتار[١٤] ، يفترض استعمال هذا الرواق للطواف حول الغرفة الجنائزية، وتلاوة الصلوات التي تشيد بمكانة الميت، وما ينتظره في العالم الآخر[١٥]. ومن المحتمل أن هذا الضريح هو لإحدى العائلات الملكية النوميدية.

II - الأضرحة البرجية:

على غرار الأضرحة البازينية المذكورة أعلاه، عرف سكان بلاد المغرب القديم الأضرحة البرجية التي صمّمت وزينتبرموز تعلّقت بالعالم الآخر، نذكر منها:

١ - **ضريح دقة**:

هو ضريح ملكي بلغ ارتفاعه ٢١ مترا، لقد ضمّ إلى جانب هندسته الليبية- البونية تأثيرات هندسية، وزخرفية إغريقية، ومصرية، يتشكل من ثلاثة طوابق[١٦]، وينتهي بقمة هرمية تعلوها صورة أسد، هذا الحيوان الذي يمثل رمز الشمس، والعالم السماوي، فكان بمثابة حارس هذا المعلم الجنائزي، يرتكز طابقه الأول على قاعدة من خمسة درجات، وبداخلة الغرفة الجنائزية الملكية، وزين بأعمدة ، وأزهار اللوتس، إلى جانب نافذة تطل على الجهة الشمالية منه، ونوافذ وهمية من جهاته المتبقية. في حين يرتكز طابقه الثاني على ثلاثة درجات، وزيّن بأعمدة، وتيجان، يوحي شكله شكل معبد، مما يبيّن قداسة المتوفي[١٧].

ارتكز الطابق الثالث لهذا الضريح على درجات، ويبدو أن جدرانه تحمل بقايا رسومات فرسان يمثّلون مرافقة الميت نحو متواه الأخير، وتماثيل نساء مجنحات

---

٩) رابح لحسن، مدافن حكام المور والنوميد، دراسة أثرية وتاريخية لأهم الأضرحة المغربية المشيدة في الفترة الممتدة ما بين القرن الرابع ق.م والقرن السابع م.، رسالة ماجستير في: التاريخ والآثار القديمة، ١٩٩٨-١٩٩٩ ص٨١

([12]) Mounir Bouchenaki, le Mausolée royal de Maurétanie, direction des beaux-arts, monuments et sites, éd, SNED, Alger, 1979, p15 ،

([13]) Mounir .Fantar, Expressions…, p41.

[14]) Mounir Bouchenaki, le Mausolée royal de Maurétanie, op.cit , pp15,20

[١٥]) رابح لحسن ، المرجع السابق ، ص ٨٢

[١٦])ينظر الصورة ٣

[17]) Hédi Slim ,et autres, op.cit, p126 .

يحتمل أنهن حاملات للأرواح، إلى جانب صورة العربة، وسائقها الذي كلّف بحمل روح الميت نحو العالم الآخر[١٨].

٢- ضريح بني رنان وضريح الخروب:

أ- ضريح بني رنان (أو ضريح الملك سيفاكس)

يقع ضريح بني رنان (Beni Rhenane)على قمة جبل سخونة على ارتفاع ٢٢١ م[١٩]، فهو يشرف على سهل وادي التافنة، وخليج رشقون، وموقع مدينة سيغا بالغرب الجزائري، ويعتبر موقعه منظرة ينسرح منها النظر إلى مسافات بعيدة، فهو يبعد عن مدينة بني صاف الساحلية المتوسطية بنحو ١٢كلم، وللوصول إليه يضطر الزائر أن يسلك طريق ترابي انطلاقا من قرية بني غانم مسافة تقارب الكيلومتر أو أكثر بقليل، وسمي من طرف سكان المنطقة بـ: (كركور العرايس) لأن عادة سكان المنطقة في وقت مضى ألزمت الأزواج الجدد بالدوران حوله، من أجل ضمان السعادة والإخلاص بين الزوجين)، ويتكون الضريح من هيكل خارجي يظهر عليه آثار التخريب والإهمال نتيجة الظروف الطبيعية وتدخل الإنسان، فهو يحتاج لأكثر من أي وقت مضى للترميم والعناية به، لكي لا نصبح آخر شهود لهذا الصرح الاثري والتاريخي. فهو ينتمي إلى نوع الأضرحة البرجية ذات التأثير الهيلينستي – الفينيقي[٢٠]، لكنّ شكله الذي لا يختلف عن باقي الأضرحة البرجية المسدسة الزوايا التي شاع انتشارها بكل من (صبراتة) و (هنشير بورغو) خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، إلى جانب ازدهار وقوة مملكة الماسيسيل يجعل من تشيده أثناء فترة حكم الملك (سيفاكس) امرا واردا.

استمرت التنقيبات بهذا المعلم ما بين سنتي ١٩٦٠ و١٩٦١م في ظروف صعبة قادها (فييمو) مع مجموعة مصغرة كانت تقطع يوميا ١٥ كلم انطلاقا من مدينة بني صاف، واستلزم الأمر فتح معبر ترابي نحو هذا المعلم للتمكين من الاقتراب منه، ولتوصيل المؤن. بني هذا المعلم بمواد بناء محلية، تتكون من حجر كلسي منحوت، استخرج من محجرة مجاورة لهذا المعلم، وبملاط من الجير تمّ استخراجه من محجرة (حجرة القط)، والبوزولان، والرماد البركاني المستخرج من مرتفعات تقع شرق الضريح الذي يظهر في شكل مثلث بستة واجهات، منها المستقيمة، والمقعرة، يلاحظ أن شكله الخارجي حسب الدراسات يتكون من ثلاثة أقسام يكون قد بلغ ارتفاعه ٣٠م، قسمه القاعدي محاط بمصطبة ترتكز على قاعدة مكونة من ثلاثة مدرجات لا تزال قائمة حتى الوقت الحاضر، تراوح سمكها ما بين ٠.٤٠م و٠.٤٢م، في حين بلغ عرض

---

[18]) Ibid , p128

[١٩]) ينظر الصورة ٤

[20]) G.Vuillemot, Fouilles du mausolée de Beni Rhénane en oranie, pp, 71,73,74,90

المدرج الأول ٠.٣٠م، بينما الثاني والثالث بلغ عرضهما ٠.٤٠م، أما طابقه الثاني تضمن أبوابا وهمية محاطة بأعمدة وتيجان، وانتهى طابقه الأخير بشكل هرمي[٢١].

ب-ضريح الخروب(ضريح الملك ماسينيسا)أو(صومعة الخروب):

إن الزائر اليوم لضريح الملك (ماسينيسا)[٢٢] يرى أنه يرتفع فوق هضبة غير مرتفعة تشرف على مدينة الخروب الذي يبعد عنها بنحو ٣كلم غربا، وعن عاصمة ملكه (سيرتا) اليوم قسنطينة بالشرق الجزائري مسافة ١٤كلم غربا، ويذكر أن الطابق الأول للضريح ظل قائما حتى بداية القرن العشرين، الذي انهار نتيجة زلزال ضرب المنطقة مع مطلع القرن العشرين[٢٣].

جرت أولى التنقيبات بهذا المعلم مع سنة ١٨٦١م التي نتج عنها اكتشاف المدفن القبوي، والشكل الهندسي، وجزء من الغرفة الجنائزية، ومع سنوات ١٩١٥-١٩١٦م تكلفت مصلحة المعالم التاريخية للجزائر بالتنقيبات، وتمكنت من اكتشاف الغرفة الجنائزية، والأثاث الجنائزي المحفوظ اليوم بالمتحف الوطني بقسنطينة[٢٤].

والسؤال المطروح: متى؟ ومن أجل من بني هذا الضريح؟ يرى البعض من الباحثين أنه بني مع منتصف القرن الثاني قبل الميلاد المزامن لفترة حكم الملك النوميدي (ماسينيسا) ٢٠٣-١٤٨قبل الميلاد[٢٥].

يستخلص من البحث أن ملوك بلاد المغرب القديم قد شيدت لهم أضرحة متنوعة من بازينية مثل قبر الرومية، والمدراسن، تشابهت في الشكل مع مدافن دلمون، التي كانت ترمز لمعتقد أخروي، والنوع الثاني المتمثل في القبور البرجية مثل ضريح دقة، والخروب، وسيغا، ذات دلالة أخروية هي الأخرى. ويستنتج أن هذه المعالم الجنائزية قد احتوت علة غرف جنائزية احتوت بداخلها على أثاث جنائزي، وزينت بعضها برموز اخروية، مما يؤكد أن ملوك بلاد المغرب القديم لم يكونوا بمعزل عن ملوك المناطق المجاورة، والمطلة علة المتوسط عندا تعلق الامر بالعالم الآخر.

---

[21])G.Vuillemot, Op, cit; pp, 71,73, 74,90

[٢٢]) ينظر الصورة ٥

[٢٣]) رابح لحسن، أضرحة الملوك النوميد والمور، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص٢٠٩

[٢٤]) نفسه، ص ٢١٠

[٢٥]) نفسه، ص ٢٢١

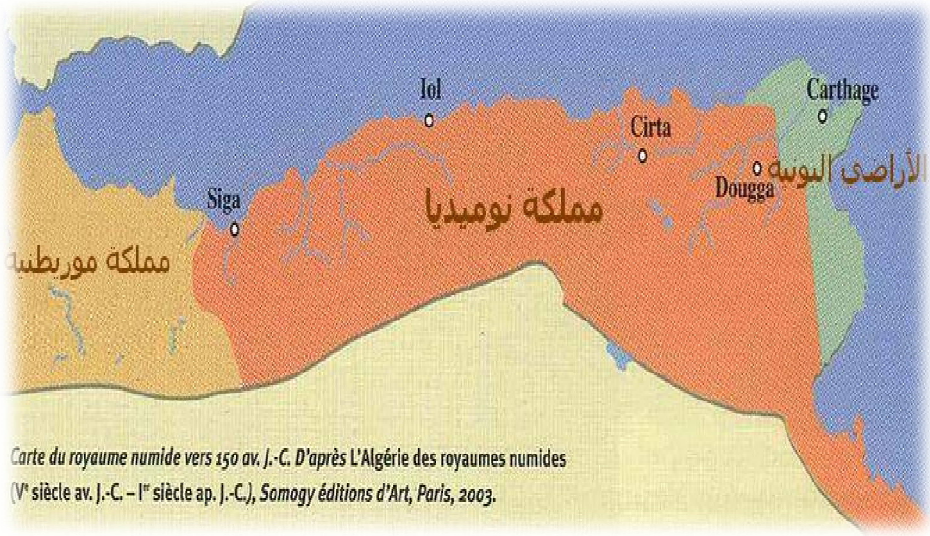

خريطة مملكة موريطانيا والممالك النوميدية

الصورة ١ : ضريح المدراسن – باتنة- الجزائر

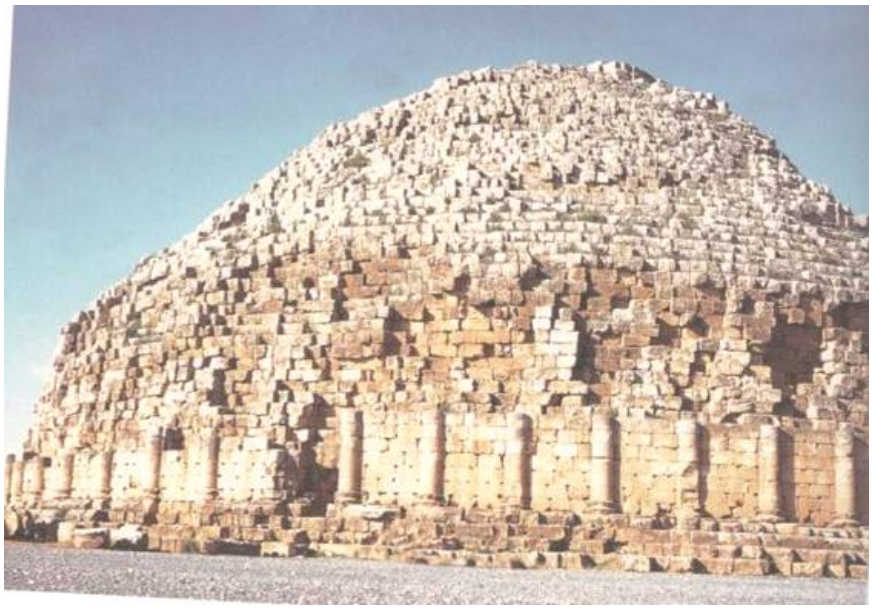

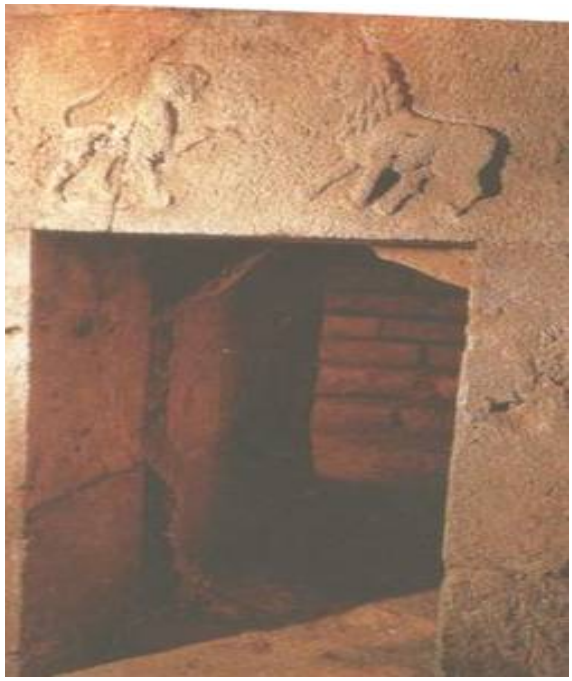

- الصورة ٢ : قبر الرومية وبداخله بهو الأسود

J-M . Blas DE Roblés, C.Sintes, op.cit, p74

الصورة ٣ : ضريح (دقة- Dougga) بتونس

الصورة ٤: ضريح الملك سيفاقس (الغرب الجزائري)

الصورة ٥: ضريخ الملك ماسينيسا بالخروب – الشرق الجزائري